من أدب الحرب

جبان يصف معركة

للأستاذ محمود الدسوقي

« هذه القصة تصوير صادق لما يعتلج في نفس الجندي في غمرة الحرب ، وما يقع في سمعه وتحت بصره من هول وكرب ، يفقدانه شجاعته أحياناً ، ويشحذان عزيمته أحياناً أخرى ؛ فاما أن يهرب كما فعل راوي هذه القصة ، وإما أن يؤدي واجب الوطن على الوجه الأكمل كما فعل رفاق له . وهذه الصورة بعض ما وقع في أوائل حرب السنوات السبع التي شنّ غارتها فردريك الأكبر ملك بروسيا على ماريا تيريزا امبراطورة النمسا وحليفاتها فرنسا والروسيا والسويد وأسبانيا والريخ الألماني في سنة ١٧٥٦ ، وكانت سجالاً في الغالب بينه وبين أعدائه »

قال البروسي الفار :

وأخيراً في الثاني والعشرين من سبتمبر (١٧٥٦) أعلن النفير وتلقينا الأمر بالمسير ، فسرت الحركة في كل شيء ، ونقض في بضع دقائق معسكر واسع مترامي الأطراف كالمدينة العظيمة نجوبه في ساعات . وشددنا الرحال وتأهبنا للمسير ، وصدر الأمر بالتقدم وانحدرنا إلى الوادي ، وأقمنا عند برنا[1] جسراً ، وشققنا فوق المدينة قبالة معسكر السكسونيين طريقاً ينتهي أحد طرفيه بباب برنا . وكان الكثيرون من أسرى السكسونيين يصعدون منه إلى الجبل متنزهين أربعة أربعة ، ويلقون على امتداد الطريق الطويل شتماً وتعريضاً لاذعاً لا مفر لهم من سماعه . وكان بعضهم يقبل من تلك الناحية حزيناً مطرق الرأس ، وآخرون يقبلون عليهم سيماء التحدي والقسوة ، وفريق غير هؤلاء وأولئك تعلو وجوههم ابتسامة تأبى أن تترك للبروسيين الساخرين ديناً بلا سداد . في ذلك اليوم قطعنا قطعة أخرى من الطريق وعسكرنا في ليلينشتاين

وفي الثالث والعشرين كلف آلاينا بحماية عربات المؤن . وفي الرابع والعشرين قمنا بزحف مضاد ، وبلغنا ليلاً وفي الضباب مكاناً لا يعلمه إلا الله . وفي الخامس والعشرين استأنفنا المسير مبكرين وقطعنا إلى أوسيج أربعة أميال ، وهنا أقمنا إلى التاسع والعشرين نخرج كل يوم للاستطلاع ، وتهاجمنا غالباً في أثناء القيام بهذه المهام جنود الأمبراطورة ، أو يدهمنا من كمين وابل من الرصاص فيسقط غير واحد قتيلاً ، ويتخلف جرحى كثيرون . فإذا ما صوبت مدفعيتنا بضعة مدافع نحو الكامنين ولى العدو الأدبار . ولم تكن هذه المصادفات تخيفني فسرعان ما ألفتها ، فكنت أقول لنفسي : إذا دام الأمر على هذا المنوال لا يكون علينا منه ضير يذكر . وفي الثلاثين عاودنا الزحف طيلة النهار فلم نصل إلا ليلاً إلى جبل لا يعرفه منا أحد ، ولا يدري من أمره من هم على شاكلتي إلا ما يدري الضرير . وتلقينا في تلك الأثناء أمراً بألاّ نقيم هنا خياماً وألا نلقي بنادقنا ، بل نظل متأهبين على قدم وساق ، إذ كان العدو على مقربة منا . فلما أصبح الصباح رأينا وسمعنا أخيراً ما كان يجري تحتنا في الوادي من ومض وقصف شديدين . وفي تلك الليلة المزعجة فرّ كثيرون من الصفوف وفي جملة من فروا الأخ بإخوان . ولم تكن الفرصة قد سنحت لي بعد ، وإن كنت إلى ذلك الحين لم يزايلني الاطمئنان

واصطففنا في الصباح الباكر لنتحدر من واد صغير ضيق إلى الوادي الكبير ؛ ولم نكن نستطيع تمييز الأشياء من كثافة الضباب . فلما بلغنا السهل أخيراً وتقدمنا إلى الجيش الكبير كنا نزحف في ثلاث كتائب . واستبنا من خلال الضباب المنتشر كالسحاب جنود العدو في عصبة فوق مدينة لوبوستس في بوهيميا وكانوا من فرسان الامبراطورة . أما مشاتها فلم تقع أعيننا عليهم إذ كانوا يرابطون في المدينة . وفي الساعة السادسة قصفت المدافع من كتيبتنا الأمامية كما قصفت بطاريات الامبراطورة قصفاً بلغ من شدته أن كانت قنابلها تصل إلى آلانيا ، وكان في الكتيبة الوسطى . وكنت إلى ذلك الحين أمشي النفس بالهرب ، فلما وقعت الواقعة عزّ عليّ الهرب وانسدت في وجهي المسالك جميعاً . وكنا نزحف في تلك الأثناء بلا انقطاع ، فلم تلبث شجاعتي أن زايلتني ، وكنت خليقاً أن أتسلل إلى بطن الأرض . ذلك أن خوفاً كالذي كان يتملكني كان يخلع على وجهي شحوب الموت ، وكان يُقرأ على سائر الوجوه حتى وجوه أولئك الذين عهدتهم مرحين لا يبالون . وكانت قنانى الشراب الفارغة — ولكل جندي منها واحدة — تتطاير تحت وقع القنابل ، فإن أغلبنا كان قد أتى

(١) مدينة في مقاطعة درسدن من أعمال سكسونيا

على آخر جرعة فى قنينته واستمد منها شجاعته فى ذلك اليوم ؛ أما الند فقد لا تكون به حاجة إليها . وتقدمنا الآن إلى مرمى المدافع إذ كان علينا أن نتبادل الموقف وكتيبتنا الأمامية . فيا هول ما شهدت ! كانت كتل الحديد تئز فوق رؤوسنا ، وتقع تارة أمامنا وتارة تنفـذ إلى الأرض خلفنا ، فيتطاير اليابس والأخضر والسكلا والحجر ! وتدهمنا أحياناً فتمزق أجسامنا وتذرو أعضاءنا كما تذرو المشيم الرياح . ولم نكن نبصر قدامنا إلا فرسان العـدو تأتى بمختلف الحركات ، فتارة تستعرض وتارة تستدير ، وآناً تؤلف مثلثاً وآونة مربعاً تنتظم فيه . وتقدمت فرساننا أيضاً وكرت على العدو . فيا له من وابل من الضربات يسقط مقمقماً ، ويمض خاطفاً ! ولم تمض ربع ساعة حتى ارتدت فرساننا مدحورة وقد هزمها النمسويون وتعقبوها حتى مرمى مدافعنا . وهذا مشهد ما أجدر المرء بأن يشهده ! خيول يعلق فرسانها فى الركاب ، وأخرى تجر أحشاءها على الأرض . وكنا فى تلك الأثناء ما نزال تحت نيران العدو حتى بلغت الساعة الحادية عشرة وجناحنا الأيسر لم يطلق رصاصة ، على حين كان الأيمن يخوض المعركة ويصلاها . وظن الكثيرون أنه لا بد لنا من الهجوم حيث يرابط جند الأمبراطورة . ولم أكن إذ ذاك جزوعاً كما كنت من قبل ، وإن كانت عفاريت الجيشين لم تفتأ تقتل عن كثب والميدان مغطى بالقتلى والجرحى . وإذ ينتصف النهار أو يكاد صدر الأمر إلى آلاينا واثنين معه بالارتداد ، فقلنا لعله إلى المعسكر فنكفى القتال ! وسمعنا مرتفعات الكروم بخطى حثيثة ونفوس مستبشرة ، وملأنا قلانسنا من دوالى الكرم وأكلنا من أعنابها هنيئاً ، ولم يخطر لى ولن هم إلى جانبى سوء على بال ، وإن كنا ما زلنا نرى من القمة إخواننا فى المعمعة تحت النار والدخان ، ونسمع قصفاً مرعباً فلا ندرى على التحقيق لمن كتب النصر . وكان قوادنا يقودوننا فى تلك الأثناء مصعدين فى الجبل ، ممعنين فى التصعيد إلى قمة شق فى صخرها ممر ضيق . فلما بلغت طليعتنا القمة سمعنا الرصاص يطلق إطلاقاً مرعباً . فخزرنا آنئذ جلية الخبر ، فإن بضعة آلاف من جنود الأمبراطورة قد كانوا تلقوا الأمر بالصعود إلى الجبل فى الجانب الآخر لينقضوا على جيشنا من خلف ، فاتصل الخبر بقوادنا فكان أن ارتددنا نحن لنسبقهم ونفسد تدبيرهم ، ولو قد تأخرنا بضع دقائق لبلغوا القمة قبلنا ولكنا من الخاسرين . ونشبت مجزرة لا توصف قبل أن نتمكن من إقصاء البندوريين[1] عن الثنية . وتكبدت مقدمتنا خسائر فادحة وانقضت مؤخرتنا لنجدتها حتى تم لنا احتلال القمة . وكانت جثث القتلى وأجسام الجرحى تؤلف تلاً تحت أقدامنا تتعثر فيه . وسرنا فى أعقاب البندوريين نجليهم عن مرتفعات الكروم درجة درجة ونقفز خلفهم من صخرة إلى صخرة حتى بلغنا السهل . وأطبق البروسيون الأصليون والبراندنبرجيون على البندوريين كالجن ، وكنت أنا حين حمى الوطيس كمن به مس لا يجد الخوف أو الذعر إلى قلبى سبيلاً ، فأطلقت طلقاتى الستين فى شوط واحد ، حتى إذا أتيت عليها سخنت بندقيتى وباتت فى يدى كالجمر ؛ فذهبت أجرها من نطاقها ، وأحسبنى فى تلك الأثناء لم ألق إلى جانبى نفساً حية إذ كان الكل قد هرعوا إلى الهواء الطلق . واتخذ البندوريون مراكزهم ثانية فوق السهل قبالة لوبوستس على مقربة من الماء ، وجعلوا يطلقون بنادقهم مستبسلين على مرتفعات الكروم حتى عض غير واحد قدامى وإلى جانبى فى السكلا . وكان البروسيون والبندوريون يختلط بعضهم ببعض فى كل مكان ، فمن وجد من الآخرين لا يزال يتحرك ضرب بالكرنافة على أم ناصيته أو طعن بالسنان . واستؤنف القتال بالسهل . ولكن أنى لامرىء أن يصف ما حدث والدخان والبخار يتصاعدان من لوبوستيس ، والهد والرعد يعميان الآذان ، والسماء والأرض تكادان تنطبقان !

أنى لامرىء أن يصف ذلك الفرع المتواصل لمئات الطبول وذلك العزف الذى يمزق القلوب أو يشدد العزائم من موسيقى الميدان المختلفة الألوان ، وتلك الصيحات المنبعثة من كثير من القواد ، والزمجرة المرعدة من مساعديهم ، وتلك الاستغاثة وذلك الاستصراخ المتصاعدين من آلاف مؤلفة من ضحايا اليوم الأشقياء المدوسين بالأقدام أنصاف الموتى ! لقد كان هذا كله يذهل الحواس وكانت الساعة الثالثة ولوبوستيس تحت النيران وجنود مقدمتنا يطبقون على البندوريين كالأسود الكاسرة ، فيقفز مئات كثيرة منهم إلى الماء والمدينة نفسها مسرح للفتك والطعان . فى هذه

(١) فرقة فى جيش الأمبراطورة ماريا تيريزا كانت مؤلفة فى حرب السنوات السبع من المجر والدلماسيين والصرب .

اللحظة لم أكن بطبيعة الحال فى الطليعة ، بل كنت فى المؤخرة لا أزال على جبل الكروم ، بينما الكثيرون غيرى كما أسلفت القول يقفزون فى حمية من درجة فى الجبل إلى درجة يبادرون إلى نجدة الإخوان . وإذ كنت لا أزال فوق المرتفع أطل على السهل ، كما لو كنت أطلع فى جو حالك مرعد يتساقط فيه البرَدَ ، قلت لنفسى : هذا أوانك قد آن ؛ أو قال لى على الأصح الملك الذى كان يحرضنى : إركن إلى الفرار !

فتلفت من حولى فإذا كل شىء أمامى نار ودخان وبخار ، ومن خلق جنود كثيرون ما يزالون يهرعون للانقضاض على العدو ، وعن يمينى جيشان كبيران على أتم الأهبة للقتال ، وعن شمالى مرتفعات الكروم وأدغال وغابات ، وهنا وههنا بضعة من البروسيين والبندوريين والهوسار قد أربى قتلاهم على جرحاهم ، فقلت : هنا ! هنا ! فى هذا الجانب وإلا استحال الأمر علىّ

فتسللت بسرة أخافت أول الأمر فى مشيتى أخترق الدوالى . وكان بعض البروسيين لا يزالون يمرون بى مسرعين ، فكانوا يقولون لى : عجل ! عجل ! أيها الأخ فالفوز لنا ! أما أنا فلم أحر جواباً بل تصنعت قليلاً أنى جريح ، وواصلت السير أرتعش من الخوف ما فى ذلك شك . وإذ أبتعد فى تلك الأثناء حتى لا قبل لأحد برؤيتى ضاعفت من خطوى وأمعنت فى سيرى وغرزت فيه ، وأنا أتلفت يمنة ويسرة كالصياد . وتطلعت من بعيد لآخر مرة فى حياتى إلى حصاد الموت وحومة الفناء ؛ ثم أطلقت ساقى للريح بجانب الغابة ، وكانت ملأى بقتلى الهوسار والبندوريين وجثث الخيل ، وعدوت عدواً سريعاً إلى النهر ، ووقفت عنده . فإذا بضعة من جند الامبراطورة المصابين الذين تسللوا مثلى من المعركة يصوبون إلىّ بنادقهم عند ما أبصرونى ويعاودون إلىّ التسديد مرتين أخريين غير عابئين ببندقيتى التى طرحتها ، وبقلنسوتى التى كنت ألوح بها وأشير الإشارة المألوفة . على أنهم لم يطلقوا النار ، فاعتزمت أن أعدو إليهم ولو لم أفعل لكانوا أحرياء بأن يطلقوا على النار كما علمت بعد ذاك . ولما جئتهم وقلت لهم إنى فار من الجيش ، أخذوا منى بندقيتى ، ووعدونى بأن يردوها إلى فيما بعد . . . لكن الذى استحوذ عليها لم يلبث أن اختفى بها على الأثر ؛ واقتادونى إلى القرية التالية وكانت تبعد ساعة كاملة من لوبوستس ؛ وكانت لنا فى خلال ذلك جولة فى الماء وليس من نقالة سوى زورق واحد ، وصراخ الرجال وعويل النساء والأطفال يرتفع كلاها إلى أجواز الفضاء ، فكل يريد أن يعبر أولاً خوفاً من البروسيين ، وكلهم يتصورونهم جد قريبين ، أو لعلهم بثيابهم عالقون ، ولم أكن فى جملة المتأخرين بل قفزت إلى وسط زمرة من النساء ، ولولا أن الملاح قذف بالبعض إلى خارج الزورق لبتنا من المغرقين ، وكان فى الضفة الأخرى مخفر بندورى رئيسى قادنى إليه من رافقونى فتلقانى ذوو الشوارب الشقراء تلقياً حسناً ، وقدموا إلىّ التبغ والشراب على الرغم من عجزنا البادى عن التفاهم ، وأنفذوا معى صحبة إلى ليتميرتز فيما أظن ، حيث قضيت ليلى بين بضعة من أبناء بوهيميا ، وأنا غير آمن بينهم على رأسى . لكنه قد كان بلغ منى جهد النهار وعنته مبلغاً دار منه رأسى فكانت هذه النقطة الهامة آخر ما فكرت فيه

وفى الصباح وكان الثانى من أكتوبر نقلت إلى بودين حيث مركز القيادة الأمبراطورية العامة . وهناك التقيت بمائتى بروسى كلهم هارب على طريقته ، وفى جملتهم صاحبى باخمان . ولشد ما ابتهجنا باللقاء على حين غفلة وفرحنا بالنجاة والحرية . وطفقنا نتحدث ونهلل كأننا بالبيت نصطلى ، ونذكر زيداً من الإخوان وعبيداً ، ونتساءل أين هما يا ترى ؟

وسمح لنا بالتجوال فى المسكر ، ووقف الضباط والجنود حولنا زمراً يستزيدوننا من الحديث عن أشياء لا ندريها . وعرف بعضنا كيف يستميل مضيفه بالمداهنة واختراع مئات الأكاذيب عن البروسيين حطاً من قدرهم وتقليلاً من شأنهم

وكان بين جنود الأمبراطورة من هم على هذه الشاكلة فيشاً وغلواً ، فزعم أقصرقزم فيهم أنه حمل أطول براندنبرجى على الفرار ، واقتادونى بعد ذلك إلى قرابة خمسين أسيراً من فرسان بروسيا فكان منظراً أليما ! فإن أحداً منهم لم يسلم من جرح أو خجل . وبعضهم قد تهشم وجهه كله ؛ وبعضهم قد أصيب فى رقبته أو أذنه أو كتفه أو خده . وقد كانوا جميعاً يتأوهون ويئنون . وكم حمد الله أولئك البائسون أن جنبنا هذا المصير مصيرهم ! وكم حمدنا نحن الله على ذلك وأثنينا عليه ! وقضينا الليل فى المسكر ثم نقد كل منا « دوكات » لسفره ، ثم بعثوا بنا إلى قرية بوهيمية